قصة مثل

- ٣ -

عدم ماله من حكم الناس فى حاله

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى

ص . ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح ع د عدم ماله من حكم الناس فى حاله / بقلم محمد ماهر قابيل. -
القاهرة : دار الفكر العربى؛ إيداع ١٩٩١.
١٦ ص : مص ؛ ٢٤ سم .- ([سلسلة] قصة مثل ؛ ٣)
تدمك : x - ٠٥٠٩ - ١٠ - ٩٧٧.
١- الأمثال العامية العربية. أ- العنوان. ب - السلسلة.

قال عبد الباقى الشع لابنه عدنان ، وهما يتناولان طعام العشاء :

– إذا بعنا القمح هذا العام فسنشترى حمارا .

قال عدنان وهو ينظر إلى أبيه فى حب الابن البار :

– بمشيئة الله يأبى . لاغنى للفلاح عن حمار يستخدمه فى عمله .

أمّن عبد الباقى بقوله :

– نعم يابنى . ولولا الفقر لما انتظرت موعد الحصاد .

قال عدنان مواسيا :

– الغنى غنى النفس يأبى . وأنت بعفتك أغنى الأغنياء . فقير إلى الله .

غنى عن كل من سواه . ولا بأس بأن ننتظر قليلا حتى تتوفر النقود .

قال عبد الباقى منشرحا بعقل ابنه الراجح :

– بارك الله فيك يابنى . لقد أثمر فيك التعليم الذى تعلمته . ولولا أننى لا أملك سوى تلك القراريط لما تركت دراستك قبل أن تتمها .

قال عدنان مهونا على أبيه :

– لقد خرجت من المدرسة الصغرى إلى المدرسة الكبرى : مدرسة الحياة يأبى . وستجدنى إن شاء الله من الناجحين فى حياتهم كما كنت من الناجحين فى دراستهم .

قال عبد الباقى متفائلا :

– أسعد الله أيامك يابنى . لقد كان موت الحمار مصيبة نزلت بى، ولم أستطع شراء غيره لضيق ذات اليد . لكننى أرجو أن يكون محصول القمح وفيرا هذا العام بحيث يفيض منه مايكفى ثمنه لشراء حمار قوى .

قال عدنان بلهجة الواعد :

– سأجتهد فى الحقل ماستطعت . والباقى على الله .

قال عبد الباقى :

– ونعم بالله . ولكننى كنت آمل أن ندخر بعض المال استعدادا لزواجك .أريد أن أفرح بك قبل . . .

قاطعه ابنه فى ود قائلا :

– حفظك الله ياأبى وأبقاك .

ثم أردف ضاحكا :

– إننى لست فى عجلة من أمر الزواج . بوسعنا أن نعطى للحمار أولوية على العروس. فهذا شأن كل فلاح أصيل .

وضحكا معا بصوت عال . ثم قال الأب بعد الضحك :

– اللهم اجعله خيرا .

وكأنه يتوجس أن يكون الضحك نذير شؤم .

* * *

وحان موعد الحصاد . وذهب الأب وابنه إلى السوق لبيع مايفيض عن حاجة البيت من قمح . وكان السعر مرتفعا فباعا قمحهما بثمن كبير، وسعدا بكسبهما سعادة فائقة . فاشترى عبد الباقى لحما، ولم يكن قد ذاقه منذ عيد الأضحى، واشترى بعض الملابس له ولأسرته، وادخر بعض النقود لوقت الحاجة، وزكى – على فقره – عن رزقه الطيب المبارك .

ثم جلس مع ابنه يتحدثان بنعمة الله عليهما . قال عبد الباقى مسرورا :

– رزق ساقه الله إلينا .

قال عدنان :

– الحمد لله . إنه لايضيع أجر من أحسن عملا .

قال عبد الباقى معتزا :

– وقد أحسنت يابنى عملك، وحقت علىّ مكافأتك .

قال عدنان فى تواضع وإخلاص :

– إن رضاءك عنى ياأبى هو جائزتى التى لاتعدلها جائزة .

اعترض الأب بشدة قائلا :

– لا . . لا . . لابد من جزاء ياعدنان .

قال الابن مبتسما :

– وهل بعد اللحم مكافأة ؟

ضحك الأب للدعابة ، وقال :

– إن من خير صفاتك مرحك وسماحتك . تجد فى العمل ، وتمزح فى الراحة .

قال الابن مواصلا :

– لكن هذه ليست فكاهة . إنها حقيقة . ولولا حاجتنا إلى الحمار لاقترحت عليك أن نشترى خروفا .

قال الأب :

– ذكرتنى بالحمار . لقد بقى معى مايكفى ثمنا له . وسنذهب بإذن الله لشرائه عما قريب .

* * *

فى اليوم التالى ، استقبل عبد الباقى أربعة من خاصة أهله جاءوا لزيارته . وهم شقيقه العربى، وابن عمه موسى، وابن عمته حمودة السقا، وابن خاله عرفات التابعى . ودار بينهم حديث شارك فيه عدنان محتفيا بأعمامه . وكل قريب للأب تجاوزا عم . قال عبد الباقى :

– أكرمنا الله فى محصول القمح هذا العام .

قال عرفات مجاملا :

- أنت تستأهل كل خير ياعبد الباقى .

قال العربى وهو يرشف قهوته :

- معوض مخلف .

قال موسى ، وقد أدرك الإشارة إلى ماأصاب عبد الباقى من نوازل انتهت بموت حماره :

- سبحان العاطى الوهاب . يقطع من هنا ، ويصل من هناك .

قال حمودة ملتفتا إلى عدنان :

- والبركة فى شطارة عدنان .

قال عدنان فى حياء :

- أنا لم أفعل إلا الواجب ياعمى .

قال عبد الباقى :

- ربنا عالم. كنت فى حاجة ماسة إلى شراء بهيم .

قال موسى ناصحا :

- الأفضل أن تشترى حمارة . . أنثى تحمل وتلد . فينالك من ورائها خير .

قال العربى مخالفا :

- لا ياموسى . إن الأنثى تضعف وتكل بالحمل والولادة . والأحسن أن يشترى حمارا يقوى على العمل، ويحتمل التعب .

قال عرفات :

- من جهة القوة والاحتمال فإن الثور هو الأنفع .

ثم أضاف مستدركا :

- لولا ثمنه الكبير .

أما حمودة ، فقد جاء باقتراح رابع قائلا :

- بل جمل وليد يكبر مع الأيام . إن الجمل للفلاح ثروة . اسألونى أنا . هذه خبرة .

أدار عبد الباقى بصره بينهم متعجبا لتضارب آرائهم حول مسألة كهذه . ثم نظر إلى ابنه فابتسم له فى صمت . وقال العربى :

- عليك بالذهاب إلى سوق القرية . وستجد فيه بدل الحمار عشرين .

لكن موسى عارضه قائلا :

- لا ياعربى . لم يعد فى سوقنا خير . تعلم التجار الجشع، وعلموه للناس . اذهب ياعبد الباقى إلى سوق الكفر . ففيه ترخص أسعار الحمير . لقد اشتريت من هناك حمارا منذ عامين بنصف ثمنه . أى والله بنصف ثمنه هنا . اسمع كلامى تكسب .

قال سوقنا قال .

وبدون أن يعقب عبد الباقى، قال عرفات مسرعا :

- الغالى ثمنه فيه . والعبرة بالجودة . لن تجد الحمير الممتازة إلا فى سوق ميت العطار . لو أنصفوا لسموها ميت الحمّار . فليس فى الناحية كلها أجود من حميرها . كأنها الخيل فى عنفوانها .

وسكت لحظة ثم استطرد ملحا :

- الواحد لايشترى حمارا كل يوم . ونحن ناس على باب الله . مالنا من حلال ، ويأتى بالكد والعرق . ولايصح أن نضعه إلا فى المفيد .

ما رأيكم يارجال ؟

أجاب عبد الباقى :

- لقد سمعنا رأيين غير رأيك . فلا يتجه سؤالك إلا إلى حمودة .

اتجهت الأنظار إلى حمودة الذى حدق من النافذة إلى الحقول المترامية، وقال باستخفاف :

– سوق بلدنا . . سوق الكفر . . ميت العطار . . هل يشترى أحد من هذه السويقات ولديه السوق الكبير : سوق المركز حيث تتسع فرصة الاختيار . سوق البندر الذى يقصده الجميع من كل صوب . توكل على الله، واذهب إليه، وإن تندم . ستدعولى .

قال عبد الباقى ضاحكا :

– أنا أدعولك من غير حاجة ياحمودة . لكن الدعاء على قدر الظلم .

انفجر الجميع ضاحكين، وقال موسى :

– أهو دعاء له أم عليه ؟

ثم قال بلهجة جادة :

– إن لك من الحنكة والتجربة ما يعينك . فاذهب وحدك ولاتصطحب أحدا ولا حتى ابنك . لقد أشرنا عليك . وما خاب من استشار . فإذا ذهبت وحدك قلبت نصائحنا فى رأسك، وأعملتها فيما ترى بعينيك . وبذلك تستطيع أن تبلغ غايتك .

قال عرفات :

– بل يذهب عدنان . لقد أصبح رجلا يملأ العين، وأثبت جدارته فى الزراعة، وهو أقدر بشبابه على أداء المهمة . لقد آن لعبد الباقى أن يستريح، وأن يتخلى عن أعبائه لابنه شيئا فشيئا . . إننا لن نأخذ زماننا وزمن غيرنا . وقد كبرنا . والبركة فى أولادنا . لقد ربيناهم ورعيناهم وصرفنا عليهم من دم القلب لمثل هذا اليوم . . حتى يحملونا فى شيخوختنا . . يظل الواحد منا يعمل بنفسه، ويبيع بنفسه، ويشترى بنفسه . . وأولاده من حوله لايتدربون ولايتمرنون . إلى متى نحرمهم الفرصة، ونحرم أنفسنا الراحة ؟

بدا عرفات منفعلا، فقال العربى :

– اسمح لى ياعرفات . يذهبان معا متعاونين . خبرة الأب مع فتوة الابن.

هذا هو المعقول . يجد عبد الباقى فى ابنه العون، ويأخذ عدنان عن أبيه الدرس . إن

اليد الواحدة لاتصفق . فلابد أن تجتمع حكمة الشيب مع صحة الشباب . انظروا إلىّ : إننى لا أذهب إلى شراء كهذا إلا مصطحبا ابنى . فإذا ضمنا مجلس رجال عددته – على صغر سنه – كواحد منهم .

أضاف حمودة نفسه قائلا :

– لكنهما معا لايكفيان ياعربى . أنا أذهب معهما لأفيدهما بوجهة نظرى على الطبيعة. إن لى فى البيع والشراء حذق سمسار . بل إننى قد عملت فى بعض أيام شبابى سمسارا حتى عنفنى أبى بحجة أن السمسرة حرام . فتبت عنها ولم أنس صنعتها . إن لى فى الماشية رؤية . ولاينبئك مثل خبير . كما أن بعض التجار والسماسرة أصدقائى . وسيراعون خاطرى .

واحتار عبد الباقى وابنه بين كل هذه النصائح .

* * *

وفى يوم سوق القرية، خرجا وحدهما إليه لشراء الحمار . وقضيا فى السوق وقتا طويلا يشاهدان الحمير، ويستفسران عن أثمانها، ويتداولان الملحوظات مع الباعة والتجار والسماسرة . ثم يختليان بنفسيهما للتشاور، ثم يعودان إلى المشاهدة والسؤال، ثم يساومان على تخفيض الثمن حتى شعرا بالجوع فاشتريا خبزا وفولا وليمونا، وتناولا طعامهما واقفين، ثم شربا شايا ثقيلا مشبعا بالسكر، وعادا إلى ماكانا فيه يواصلان البحث .

وانتقى الأب حمارا قويا أعجب الابن . فركبه الأول مجربا، ثم تبعه الآخر . وتفاهم الأب مع البائع على الثمن المناسب فدفعه، ثم أمسك ابن البائع بحبل الحمار متمسكا به، معلنا أنه كان يطعمه بيديه، ويعنى به، ويرعاه . فلم يفلت الحبل حتى أعطاه عبد الباقى بعض النقود . وتحلق حول عبد الباقى ثلاثة سماسرة ممن يتطفلون على المشترين دون دعوة، فلم يصدهم، بل منحهم أيضا نصيبهم تيمنا بحماره العزيز .

ثم ركب الأب حماره، وأردف ابنه خلفه، وخرجا من باب السوق بعد أن دفعا الرسم المقرر.



وقال الأب :

- ماشاء الله ، حمار حصاوى معتبر .

قال الابن فرحا :

- جاء فى وقته ، وسيكون بإذن الله قدم السعد علينا .

ومضيا على هذا الحال يتحدثان حتى مرا بجماعة من الفلاحين يجلسون على الأرض بجانب الطريق . فألقى عبد الباقى عليهم السلام، وردوا عليه . فلما تجاوزاهم سمعا أحدهم يقول مستاء :

- انظروا إلى هذا الرجل وابنه : يركبان الحمار معا . فيثقلان عليه . ياالقسوة البشر على غيرهم من مخلوقات الله . .

تأثر الأب بكلام الرجل، وشعر الابن بوخز الضمير فقال :

– سمعت ياأبى ماقاله الرجل ؟

أجاب الأب فى خجل :

– سمعت يابنى . يبدو أن عنده حقاً .

قال الابن مؤيدا :

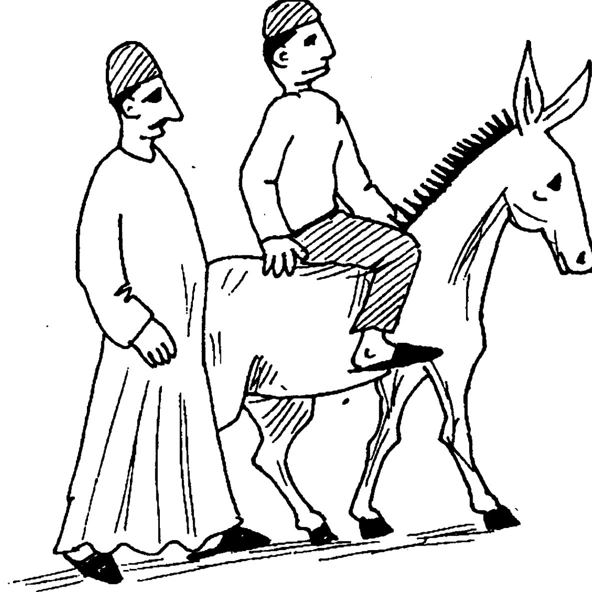
– لايليق بنا بالفعل أن نركب الحمار معا . دعنى أنزل، وابق أنت ياأبى راكبا .

قال الأب فى حزم :

– لا . بل أنزل أنا . وتركب أنت .

وتوقفا قليلا ريثما نزل الأب، وظل الابن راكبا، وسارا على هذا الحال جنبا إلى جنب يتحدثان . قال الأب :

– لقد ساق الله إلينا هذا الرجل فى بداية عهدنا بهذا الحمار ليلقننا درسا فى واجب الرفق به .



قال الابن متأدبا :

- العفو ياأبى . أنت سيد العارفين .

قال الأب متواضعا :

- يموت المعلم ولا يتعلم .

قال الابن متلطفا :

- بل أنت تعلم بلدا بحالها . وإن فاتتك واحدة فذلك سهو من علم المئات .

وامتن الأب لقول ابنه، واسترسل فى محادثته حتى مرا بجماعة أخرى من الناس، فألقيا عليهم السلام، وردوا عليهما . فلما تجاوزاهم سمعا أحدهم يقول باحتقار :

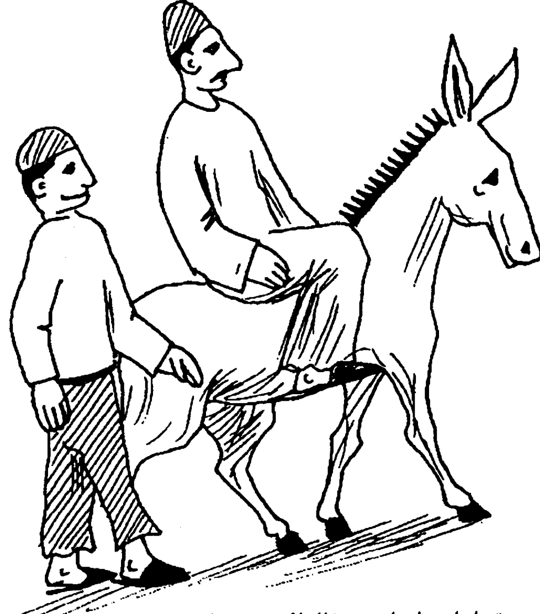
- انظروا إلى هذا الابن العاق : يركب الحمار، ويترك أباه ماشيا على قدميه إلى جواره . أبناء آخر زمن . كنا على أيامنا لانمر بذى مقام راكبين أو حتى منتعلين . فما بال الأب الذى أوصى به الله فى القرآن .

فيرد عليه آخر :

- لاتلم الابن . ولم الأب الضعيف الذى لم يحسن تربيته، وقبل منه مثل هذه التصرفات .

وتبادل الأب وابنه النظر . ثم قال الابن متأثرا بما سمع وهو ينزل عن الحمار :

- تفضل ياأبى بالركوب .



وركب الأب مستسلما صامتا حتى قال الابن مهونا وهو يسير إلى جانبه :

– لا عليك يا أبى . الحمد لله أن الناس ينبهوننا إلى الغلط فننتبه ولانكابر . . لاخير فيهم إن لم يلفتوا نظرنا، ولاخير فينا إن لم نمتثل . أليست ألسنة الخلق أقلام الحق ؟

أجاب الأب مكدرا :

– بلى يابنى .

وعلى هذا النحو مرا بجماعة ثالثة، فألقيا السلام، وردوا عليهما . فلما تجاوزاهم أرهف الأب سمعه متوقعا انتقادا ثالثا، وصدق حدسه . فقد سمعا واحدا من الرجال يقول :

– ياله من رجل أنانى . يركب الحمار ويترك ابنه ماشيا كأنه عبد يتبعه . لايهمه إلا راحته هو فقط .

لسعت الكلمات عبد الباقى كأنها نار فقفز من فوق الحمار، وسار مع ابنه يقودانه إلى البيت . فقال الابن :

– كأننا فى موكب . نزف الحمار احتفاء به .

قال الأب :

– إن الحمار للعمل على كل حال . وليس لركوبنا . وما الضرر فى أن نمشى ؟ لقد اعتدنا ذلك . وتركنا الركوب للأكابر .

قال الابن فى إشفاق :

– مقامك محفوظ يأبى . لكن المشى صحة . هكذا تعلمنا فى المدرسة . كان عبد الجواد أفندى مدرسنا لايكف عن تذكيرنا بفوائد المشى . لأنه كان يأتى من الكفر ماشيا بسرعة تفوق سرعة حضرة الناظر .

قال الأب ضاحكا :

– أكانا يتسابقان ؟

أجاب الابن مبتسما :

– لا . ولكننا كنا نراقب ونحسب .

قال الأب مواصلا الضحك :

– يالكم من أشقياء .

قال الابن :

– هذا شرف لايناله إلا عبد الجواد أفندى .

وأبصر جمعا من الرجال يقفون على جانب الطريق، ويتحدثون، فقال :

– ربنا يستر . ولانسمع هذه المرة مانكره .

ومرا بهم مسلمين، وبعد رد السلام مباشرة سمعا أحدهم يقول مستهزئا :

– يمشيان على أقدامهما، ويتركان حمارهما .

ثم يتبع نقده بضحكة ساخرة، ويستطرد قائلا :

– أحمقان وحمار .

وضحك الجميع بصوت عال أثار غضب الأب وابنه، لكنهما لم يجدا على الرغم من تأثرهما البالغ حلا يسكت الناس فلا يذمه أحد . قال الأب :

– لقد جربنا كل الحلول، فلم نسلم من الألسنة الحداد :

ركبنا معا، فقالوا : قاسيان .

وركبت وحدك، فقالوا : عاق .

وركبت أنا، فقالوا : أنانى .

ومشينا، فقالوا : أحمقان .

لقد غلبت، وغلب حمارى .

حاول الابن تهدئته قائلا :

– دعنا ياأبى نفكر . كل عقدة ولها حلال .

قال الأب منفعلا :

– أو سكين . نقطعها ونخلص .

قال الابن بلهجة حانية :

– إن الصداع لايداوى بالبتر .

احتد الأب قائلا :

– ليته كان صداعا . إنه سرطان !

ومضت فى ذهن الابن فكرة قدم لها مترفقا بقوله :

– لقد جربنا الركوب، وجربنا المشى . هذا يعنى أننا لم نستنفد سائر الحلول .

قال الأب مزمجرا :

– وهل بقى بعد ذلك شىء ؟

أجاب الابن فى ثقة :

– ولم لا ؟ نحمل الحمار ونسير به .

نظر الأب إلى ابنه فى ذهول من لايصدق أذنيه، ثم ثار قائلا :

– لاشك أنك جننت تماما .

هدأ الابن أباه موضحا :

– أرجوك ياأبى لاتظلمنى . إن الرفق بالحيوان شيمة كريمة تنعقد لها الجمعيات . وقد مشى حمارنا طويلا حتى تعب . فلم لا نريحه قليلا ونحمله كما حملنا ؟ إننا بذلك نستحق جائزة جمعية الرفق بالحيوان التى طالما سمعت بمآثرها فى المدرسة .

استحسن الأب تلك المثالية . وهو ككل فلاح حريص على بهائمه، رحيم بها . لكن ليس إلى درجة أن يحمل حماره فى الطريق . إلا أن ابنه ظل يزين له الفكرة حتى رضخ أخيرا . فحملا الحمار معا . كان ثقيلا . ولكنهما كانا فلاحين قويين، فاستطاعا أن يرفعاه عن الأرض، وأن يسيرا به مغتبطا بعطفهما . وما كادا يفعلان حتى لاحقتهما الضحكات والشتائم، وتكاثر عليهما الناس يتعجبون، ويصفونهما بالجنون، والأطفال يهللون .

لم يرتفع صوت واحد ملتمسا لهما عذرا فى احتمال مرض الحمار، أو إصابته إصابة مفاجئة أعجزته عن السير، واضطرتهما لحمله . بل تعالت الصيحات متلاحقة :

– ركب الحمار حمارين .

ياشوم غراب البين .

ياراكب الرجال .
قلبت والله الحال .
ياناصح ياقوى .
ياحمار عبد القوى .



ثم ارتفع صوت نسائى يقول :
- ياراكب الأكتاف .
وفارد الجناحين .
ملك الحمير طواف .
قاعد على راسين .
ماللغريب وماله .
راكب على عبيده .
وجع فى عقل باله .
مولد وصاحبه سيده .
ياسعده يادلاله .
شمخ ومن يعيده .
وواصل عبد الباقى وابنه طريقهما محزونين حتى قال الأب يائسا :
- لم يبق سوى أن نلقى بالحمار إلى النهر .
قال الابن مهموما :
- نعم ياأبى . لم يبق بالفعل سوى ذلك .
وعلى حافة النهر، وقفا يراقبان حمارهما المسكين يقضى نحبه غرقا . بينما الناس حولهما يبدون الدهشة، والاستياء، وينعتونهما بالقسوة، والحمق، والجنون .
وقال الأب لابنه فى حسرة :
- لافائدة . حتى بعد أن عدمناه . لم نتخلص من كلام الناس . عدم ماله من حكم الناس فى حاله .

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٧٨٢٣
الترقيم الدولى	X - ٩٧٧ - ١١ - ٠٥٠٩